

الزاوية وتحدي المرجعيات في المجتمع الجزائري المعاصر

أ.د/ لعلى بوكميش (نائب مدير جامعة أدرار - الجزائر) . د/ باشيخ أسماء
(جامعة أدرار - الجزائر)

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تحديد دور الزاوية كمؤسسة تربية دينية في الحفاظ على وحدة المجتمع الجزائري وهويته المتأصلة، هذا المجتمع الذي عرف محطات متباينة تأرجحت بين الانتكاسات تارة وانتعاشات تارة أخرى، وما يزال إلى اليوم يواجه العديد من التحديات التي تهدد وحدته بل وأمنه واستقراره.

ومن هذه التحديات الانقسام الثقافي للمجتمع، والتيارات والمذاهب الدينية الوافدة وما يصاحبها من تعصب وتطرف وعنف وأخيرا الغزو الثقافي وما ينجر عنه من طمس للهوية الثقافية للأمة وتفكيك لثقافة المجتمع إلى ثقافات متصارعة و متحاقدة.

وأمام هذه التحديات فان دور الزاوية يتمثل في الحفاظ على وحدة المجتمع وصيانتته وتثبيت أواصر الانسجام والتناغم بين مكوناته، وكذا تجسيد الكمون الاجتماعي بين أفراد الذين هم بين مطرقة التغريب وسندان الأصالة وذلك من خلال: الحفاظ على الوحدة الثقافية للمجتمع، الحفاظ على المرجعية الدينية له والحفاظ على الهوية الثقافية له أيضا.

الكلمات المفتاحية: الزاوية، وحدة المجتمع، الوحدة الثقافية، المرجعية الدينية، الهوية الثقافية.

Abstract:

This research aims to define the role of the *Zawia* as an educational and religious institution in preserving the unity of the Algerian society and its inherent identity. This society knew different periods which oscillated between relapses and refreshments, and still faces many challenges that threaten its unity and even its security and stability. These challenges include the cultural divisions of the society; the inflowing religious currents and doctrines characterized by intolerance, extremism and violence; and finally the cultural invasion leading to an obliteration of the nation's cultural identity and the dismantling of the society's culture into conflicting and mutually malevolent cultures.

To withstand these challenges, the *Zawia* has to preserve and maintain the unity of the society, establish bonds of harmony, as well as the embodiment of social latency between its members who are torn between westernization and authenticity. This can be achieved through: maintaining the cultural unity of society; maintaining the religious reference of society and preserving the cultural identity of society.

Key words: The *Zawia* , society unity, cultural unity, religious reference, cultural identity.

Résume:

Cette recherche a pour but d'identifier le rôle du zawia en tant qu'institution éducative religieuse dans la préservation de l'unité de la société algérienne et de son identité inhérente, qui a connu différentes étapes et a fait face à de nombreux défis qui menacent son unité, sa sécurité et sa stabilité.

Parmices défis figurent la division culturelle de la société, les courants et les doctrines religieuses et l'intolérance, l'extrémisme et la violence, et enfin l'invasion culturelle et l'oblitération de l'identité culturelle de la nation et le démantèlement des Zawia est de préserver l'unité de la société et maintenir les liens d'harmonie entre ses composantes, ainsi que l'incarnation du retard social entre ses membres qui sont entre l'occidentalisation et l'originalité.

Mots-clés: zawia, unité communautaire, unité culturelle, référence religieuse, identité culturelle.

مقدمة:

إن الحديث عن النسق المجتمعي يعني ضمناً الحديث عن أواصر تماسكه وثباته، خاصة في ظل ذبوع فكرة أنّ التنافر الاجتماعي ينفي المبدأ البنائي لهذا الأخير، فما سمي المجتمع كذلك إلا لأنه حيز من العلاقات والتفاعلات المتبادلة والمتزنة في الغالب الأعم، بفعل الموروث

الثقافي المتنوع من عادات وتقاليد ودين... وغيرها، و التي تشكل في النهاية ضوابط عرفية مستصاغة لدى الأفراد؛ ومن بين هاته الآليات العرفية يمكن الحديث على سبيل التحديد لا الحصر عن "الزاوية" المؤسسة العريقة في الجزائر، و التي كان لها باع طيلة الحقب التاريخية من جهاد وتربية ودين وتكافل...

هاته الأدوار التي تجعل منها مؤسسة راعية للمرجعيات الهوياتية، فطالما حافظت الزاوية على اللّغة والرّي و التنشئة الاسلامية والقيم الاجتماعية و الثقافية، بل وحتى في شد عضد الكيان الاجتماعي من الطمس والتحلل والزوال، الأمر الذي يستدعي في وقتنا المعاصر الوقوف عند هذا الدور ملياً كوننا في بيئة شديدة الديناميكية، عديدة الدواخل و التوافدات فهي بيئة طيعة الذوبان اذ لم تُحط نفسها بجدار متين الوقاية، وهو ما يناط ويعول فيه على الزاوية المؤسسة المخضرمة في بيئتنا، الأمر الذي يجعلنا ننطلق هنا من تساؤل محوري مفاده: كيف يتشكل دور الزاوية في المحافظة على مرجعيات المجتمع الجزائري المعاصر؟

أولاً: المدخل العام (نواتج تمازج النسق الديني والسياسي والاجتماعي):

تعد الزاوية مؤسسة تربوية دينية ذائعة الانتشار في بيئات المغرب العربي، تقوم بتحفيظ القرآن الكريم وتدرّس العلوم الشرعية من أصول وفقه وعقيدة وحديث، وكذا التركيز على تعليم اللغة العربية لأنها السبيل لفهم العلوم السابقة الذكر وفهم القرآن الكريم وتفسيره، هذا إلى جانب

تدريس علوم أخرى - كما نلاحظه من المخطوطات - مثل الرياضيات والطب والفلك وغيرها من العلوم.

بحيث تستقبل هاته المؤسسة (الزاوية) الطلبة من مختلف الأعمار والمستويات، ويقوم أسلوب التعليم فيها على التلقين والحفظ واعتبار الشيخ مصدر العلم والمعرفة.

كما تقوم الزاوية بتربية النشء تربية إسلامية على أساس تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، على اعتبار أن التربية أساسا هي عملية تحويل الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي تواصلية واندماجي، لذا هي تهتم بتسمية الجوانب المعرفية والسلوكية لدى الفرد ليتمكن من مجابهة تحديات الحياة المتنامية، معتمدة في ذلك على مبدأ الاكتساب، فالفرد يكتسب ويتعلم المعارف والقيم ونماذج السلوك المقبولة اجتماعيا، وكذا العادات والتقاليد و ثقافة المجتمع بشكل عام.

أما التربية المقرونة بالدين والتي نعني بها "التربية الإسلامية" فهي تربية تقوم على أساس نظرة الدين الإسلامي للإنسان والحياة والكون، فهي تزود الإنسان المسلم اضافة لما سبق بكل ما يتطلبه تقرير العبودية لله وحده لا شريك له، وهي تربية روحية إيمانية في الأساس العام.

لذا لطالما كانت التربية الإسلامية أرضية نمت عليها المؤسسات التربوية الدينية على عمومها، والتي تعد مؤسسة الزاوية أهمها كون أنها عملت على مدار العصور على الحفاظ على هوية المجتمع و مرجعياته، وذلك من خلال محافظتها على مقومات الهوية (اللغة، الدين،...) ناهيك

على الفضل الكبير الذي أتاحتها من خلال نشر الإسلام في الكثير من دول إفريقيا، وما تزال أدوارها إلى اليوم تتجسد من خلال تخريج طلبة وأئمة منتشرين عبر ربوع الوطن وحتى خارجه ينشرون تعاليم الإسلام.

أما عند الحديث عن الواقع الجزائري الذي عرف منذ أزيد من عقدين من الزمن تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية، كما عرف مأساة دموية راح ضحيتها مئات الآلاف من الأبرياء بفعل التطرف الديني ووفود أفكار دينية غريبة عن المجتمع، بل وعن الدين الإسلامي الحنيف الذي عرفه المجتمع الجزائري منذ قرون بعيدة.

كما عرف موجات من الغزو الثقافي تمثلت فيما تنشره وسائل الإعلام والاتصال تحت تأثير العولمة من نماذج ثقافية تختلف جذريا عن ثقافة مجتمعا، و موجات من الغزو الفكري والديني تمثلت في انتشار وتوسع حركة التبشير التي تعمل على الترويج للدين المسيحي، هذا إلى جانب ظهور وترعرع تيارات ومذاهب دينية جديدة مثل المذهب الشيعي والتيار السلفي بمختلف أقسامه وفروعه.

وعلى غرار ذلك يمكن ذكر أيضا ما عرفه الوضع الخارجي المحيط بالدولة الجزائرية مثل ما عرفته بعض الدول من حالة انقسام مجسد وفعلي، ومنها دولة السودان التي تم تقسيمها إلى دولتين بعد أن كانت دولة موحدة ولم يكن شعبها يتصور أن هذه الحالة الانقسامية ستحدث في يوم ما، ناهيك عن بعض الدول التي عرفت وما تزال حالة من الحرب الطائفية والمذهبية، وخير مثال على ذلك دولة العراق التي تعرف حالة من الحرب الأهلية بفعل الصراع المذهبي الشيعي والسني، وما

عرفته الجزائر ذاتها في منطقة بريان (غرداية) من عنف بسبب الصراع المذهبي بين السنة والاباضيين، وكذلك دولة مصر التي عرفت حالة من العنف بفعل الصراع الديني الطائفي بين المسلمين والأقباط.

إن حالة الانقسام وحالة الحرب الأهلية وحالة العنف هو نتاج لحالة من الصراع الديني سواء بين المذاهب الإسلامية أو بين المسلمين والمسيحيين.

ومن خلال ما سبق عرضه سواء فيما يتعلق بما عرفه المجتمع الجزائري أو ما عرفته بعض المجتمعات العربية، فإننا نخشى أن تكون هذه الأمور الوافدة إلى مجتمعنا والدخيلة عليه سببا يهدد أمنه واستقراره والأخطر من ذلك هو المساس بوحده، وعليه يأتي هذا المقال * كمحاولة للبحث في دور الزاوية إزاء هذه التحديات للحفاظ على وحدة المجتمع الجزائري كلا لا يتجزأ.

ثانيا : مدخل تعريفى بمؤسسة الزاوية:

يشير التعريف اللغوي للزاوية «بأنها مشتقة من فعل انزوى بمعنى ابتعد وانعزل وسميت كذلك لأن اللذين فكروا في بناءها أول مرة من المتصوفة والمرابطين اختاروا الانزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجها طلبا للهدوء...الذي يساعد على التأمل والرياضة الروحية»¹.

وقد اعتبر بعض المهتمين بالجانب الثقافي والديني في الجزائر أن الزاوية هي عبارة عن «مجموعة من الأبنية ذات الطابع المعماري الإسلامي...شيدت قبابها على أضرحة الأولياء الصالحين أو بُنيت تخليداً لذكراهم، أما عن تسمية الزاوية كاصطلاح فهناك من يرى أنها جاءت إما لانزوائها عن المدينة باعتبار أن العديد من الزوايا كانت في مناطق قروية، أو لأن وجودها كان دوماً في أطراف المدينة أو ركن منزوي بها...وهي تشبه المدرسة أو الدير»².

وقد ذكر "دوماس" عام 1847 في كتابه (منطقة القبائل) تعريفاً لمفهوم الزاوية بالمغرب حيث قال «إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة...تحتوي عادة على مصلى وغرفة لتلاوة القرآن ومدرسة لتحفيظ القرآن وتلقين علوم الدين وقواعد اللغة العربية كما تضم غرفة ومراقد لإيواء الطلبة وضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين ويلحق بها أيضاً ضريح الولي الصالح ويكون هذا الولي في الغالب هو مؤسس الزاوية»³.

«وقد فرق "ديفوكس" بين زوايا الأرياف وزوايا المدن فقال: إن الأولى مبنية حول قبر لمرابط غير معروف كثيراً، ويوجد القبر في دوار تقطنه إحدى القبائل، وفي الدوار أحفاد هذا المرابط...أما في المدن فالزاوية عبارة عن بناية كبيرة لإيواء المشردين والطلبة والعلماء والغرباء...وقد تصبح الزاوية مدرسة عليا إذا تخصص لها أو ألحق بها مدرس شهير لتدريس العلوم العالية، وتحمل الزاوية اسم مؤسسها أو الحي الموجودة فيه وأحياناً اسم المرابط التابعة له»⁴.

فالزاوية إطار تنظيمي ذي غاية تربوية دينية محضة متمحورة حول تثبيت التربية الإسلامية في الناشئة والحفاظ على ديمومة الموروث الإسلامي إذ تضم على إثر ذلك شيوخا لتلقين العلم الديني والعلوم اللاحقة به لجملة من الطلاب اللذين يكون الولاء اللامتناهي للزاوية وشيوخها في إطار من الطاعة لشيوخ العلم والفقهاء .

ولا تنتهي غاية الزاوية عند هذا المقصد فحسب بل هي مسؤولة على تثبيت الأخلاقيات التي تحث عليها التربية الإسلامية حتى بين غير الطلاب المنتمين إليها أي بين أفراد المجتمع عموما بتهديب النفوس والعمل على صلح المتخاصمين، والتوفيق بين المتضاربين وهدى المنحرفين وتثقيف الجاهلين و عون المعوزين .. وغيرها من المآثر التي هي كلها لا تخرج عن إطار المحاور الكبرى للتربية الإسلامية.

ثانيا: دور الزاوية في الحفاظ على الوحدة الثقافية للمجتمع الجزائري:

لا شك أن انقسام المجتمع إلى فئات أو طبقات أو طوائف وأخيرا إلى دويلات- هذه الأخيرة تعد أخطر أشكال الانقسام التي تخافها المجتمعات والدول- يبدأ أولا بالانقسام الثقافي وتضعف الوحدة الثقافية لهذا المجتمع؛ والثقافة كما يعرفها العلماء وعلى رأسهم " تايلور " « هي ذلك الكل المعقد والمركب الذي يتكون من العادات والتقاليد والقيم والأعراف والدين واللغة وكل ما يتعلمه الإنسان باعتباره عضو في جماعة معينة»⁵؛ فالثقافة هي كل ما يكتسبه الفرد من المجتمع من خلال عملية التربية والتنشئة والتي من عناصرها العادات والأخلاق والدين وغيرها.

هذا الأخير (الدين) الذي يلعب دورا بارزا في رسم معالم الثقافة وإعطائها خصوصيتها المتميزة، لذلك نجد الحديث عن الثقافة الإسلامية والثقافة المسيحية وغيرها من الثقافات ذات البعد الديني، كما تشكل الثقافة الوعاء العام الذي يغترف منه أبناء المجتمع الواحد، مما يعطيهم طابعا ثقافيا موحدًا ومتميزًا عن غيرهم، ويولد لديهم نوعًا من الشعور بالوحدة والتماسك والاندماج الاجتماعي.

والى جانب الثقافة العامة هناك ما يسمى بالثقافات الفرعية التي تخص فئات أو طوائف اجتماعية معينة، حيث للحفاظ على وحدة المجتمع لا بد من التركيز على الثقافة العامة أو ما يسميه البعض بالعموميات الثقافية بدل الخصوصيات الثقافية، ولكي يتحقق ذلك لا بد من بناء المناهج التربوية على أساس تلك العموميات حتى تتشربها الأجيال وتحس بأنها كيان واحد تنتمي إلى نفس الثقافة ونفس المجتمع.

من خلال ما سبق يتبين لنا ضرورة بناء التربية والمنهاج التربوي بالزاوية على أساس الثقافة العامة للمجتمع الجزائري أي على أساس القواسم الثقافية الكبرى المشتركة بين أبناء الشعب الجزائري، وتكريس قيم الوحدة ونبذ روح الفرقة والعصبية والجهوية ونبذ كل الأفكار التي تفرق الكلمة وتشتت الصف وتؤدي إلى تقسيم المجتمع.

ولنا أن نستفيد الكثير من العبر مما حدث في السودان، حيث تم تقسيمها إلى قسمين وما انقسم السودان جغرافيا إلا بعد ما انقسم ثقافيا، وتقبل الناس في ثقافتهم فكرة الانقسام وأنهم جزئيين متناقضين ومتباينين ثقافيا، الأمر الذي نتج عندما تسللت أفكار وافدة بنت منظومة ثقافية

دخيلة قائمة على الانقسام الثقافي الذي تحوّل الى سلوك يقاتل فيه الأخ أخاه بدافع الانفصال أو النضال المزيف.

ثالثا: دور الزاوية في الحفاظ على المرجعية الدينية للمجتمع الجزائري:

يلعب الدين دورا كبيرا وهاما في توجيه سلوك الأفراد، لأن تعاليم الدين تؤخذ دائما كأشياء قطعية مسلم بها ولا تقبل النقاش والجدال اذ تدخل دوما في دائرة المقدس الديني والدليل على ذلك كيف نصدق رغم ما وصلته البشرية من تطور في العصر الراهن أن نرى أشخاصا ذوي مستوى علمي رفيع جدا ينحنون ويسجدون للحيوانات كالأبقار والفئران والأفاعي وغيرها.

فالدين من خلال العقيدة التي يحملها يقود معتنقيه بشكل أعمى دون إعمال للعقل والمنطق وذلك ليس لأنه لا توجد لديهم عقول تفكر، ولكن لأنهم ينظرون إلى تعاليم الدين على أنها مقدسة ولا تحتل الخطأ، وبأنها مسلمت يجب التقيد بها والخضوع لها فالدين له قوة عجيبة في تحريك السلوك البشري، فهو يدفع الإنسان أحيانا نحو التخريب والعنف والقتل أيضا.

وفي هذا الإطار نجد أنه قد تسلت إلى مجتمعا تيارات فكرية ومذهبية غريبة عنه لها قواعد وأصول ومسلمات تختلف عما توارثه الشعب الجزائري جيلا عن جيل من وسطية سليمة تستند إلى المذهب المالكي الذي يقر جمهور الفقهاء بأنه أقرب المذاهب للسنة وأكثرها اعتدالا.

اذ عملت هذه التيارات الدينية الوافدة على تشكيل طوائف و فرق دينية متعصبة تدعي كل واحدة منها أنها صاحبة العقيدة الصحيحة مما ولد التطرف والغلو إلى حد بلغ فيه تكفير الطرف المخالف في الرأي واستباحة دمه، وقد انجر عن ذلك عشرية سوداء ذهب ضحيتها مئات الآلاف من الأبرياء.

ثم إن توافد التيارات الدينية والمذهبية على مجتمعنا يتزايد يوما بعد يوم وهي ذات مشارب مختلفة فهناك السلفية بأنواعها العلمية والجهادية، وهناك حركة الدعوة والتبليغ، وهناك المذهب الشيعي بمختلف فرقته وهناك الحركة التبشيرية وغيرها، و هو وضع سوف يقود في المستقبل إلى الانقسام الاجتماعي في شكل فرق وطوائف دينية ثم إلى مجتمعات طائفية، و لا شك أن الخطورة لا تكمن في الانقسام ولكن تكمن في الصراع وانتهاج العنف بما يسمى "الإرهاب" لمحاربه الطائفة المخالفة في الرأي ومحاولة فرض الرأي بالقوة ونبذ الحوار كسلوك حضاري أوصى به المولى تبارك وتعالى نبيه الكريم في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾6.

إذن إن هذه التيارات ستؤثر على وحدة المجتمع وعلى أمنه واستقراره حاضرا ومستقبلا خاصة إذا سيء استخدامها وتدخلت أطراف خارجية للتأثير عليها ولنا العبرة فيما يحدث في العراق ولبنان ومصر.

حيث كما سبق الذكر إن الخطر بالنسبة للفكر الديني هو أن له تأثير قوي على السلوك فتأثيره لا يتوقف عند مستوى الفكر بل يتعداه إلى

مستوى الممارسة، ولا شك أن أخطر مظاهر هذا السلوك هي التعصب والتطرف الديني والمذهبي وعدم تقبل الآخر ومحاولة فرض الرأي ولو بالقوة، وهذه أمور تجعل التعايش بين أبناء المجتمع الواحد مسألة صعبة المنال.

و أمام هذا التحدي فإننا نتساءل عن دور مؤسسة الزاوية؟

هل يا ترى ستبقى منغلقة على ذاتها على اعتبار أن الأمر لا يعينها، وأن تتذرع بأنها متمسكة بالمذهب المالكي؟

وهو تساؤل هام كون أن شبابنا بحاجة إلى معرفة الحقيقة المقنعة التي من شأنها أن توضح حقيقة هذه المذاهب والتيارات الوافدة إلينا حتى تكون لديه الحصانة اللازمة والبرهان اليقيني الذي يمنعه من الوقوع فريسة لأفكار ومخططات هدفها الوحيد هو النيل من وحدة الشعب الجزائري.

والأمر يزداد الحاحا لدى الشباب اليافع (الصغار منهم) كونهم في مرحلة ارساء الشخصية القاعدية لديهم، ونحن بكل أسف نلاحظ أن منظومتنا التربوية قد ركزت على الجانب العلمي وأهملت الجانب التربوي والديني الذي كما أسلفنا له دور خطير في توجيه السلوك، إذ أن شبابنا في ظل هذا الوضع سيكون فارغا غير محصن يمكن تعبئته بما يفد من مذاهب وأفكار.

مما سبق فإن من واجب الزاوية هو تحصين الشباب خاصة و تسليحه بالفكر الديني الصحيح والسليم القائم على التعاليم الصحيحة

للدين الاسلامي بعيدا عن الغلو و التطرف والعنف خاصة أمام تراجع هذه الوظيفة في مؤسستنا التربوية كما أسلفنا، هذا من جهة ومن جهة أخرى فلا بد أن توضح الزاوية للشباب وبدون تعصب ما يشوب المذاهب والأفكار الوافدة من مآخذ بأدلة دامغة من الكتاب والسنة، حتى يقتنع الناس فلا يقعوا في المحذور وحتى يرجع من أخطأ السبيل من هؤلاء الشباب.

اذ بالرغم من أن المذهب المالكي قد شكل المرجعية الدينية للمجتمع الجزائري على مر السنين، ولكن اليوم نلاحظ بعض الناس يستقون الفتاوى من هنا وهناك خاصة من الفضائيات دون علم بالاختلافات المذهبية من جهة، ودون علم أولئك المفتين بأوضاع المجتمع الجزائري وظروفه من جهة أخرى، فقد لاحظنا في بعض برامج الفتاوى بإحدى القنوات الفضائية أن أحد الشباب يتصل بالمفتي ويقول له بل ويطلب منه الافتاء بجواز الافطار في رمضان قبل الشعب الجزائري مدعيا أن الأذان يرفع بشكل متأخر أي بعد دخول الوقت، فما كان من الشيخ مشكورا أن دعاه إلى ضرورة اتباع الأذان وعدم الخروج عن عموم الشعب.

كما قد لاحظنا أن بعض المنتسبين إلى بعض التيارات الدينية يفتون رغم قلة رصيدهم المعرفي بأصول الدين ومقاصده ولا تتوفر فيهم أدنى شروط المفتي، ومما لا شك فيه أن الفتاوى الصادرة عن الفضائيات بعيدة عن واقعنا، لأنه أساسا من شروط المفتي العلم بأحوال الناس وظروفهم من جهة، والدراية الوافية بالفتاوى المؤسسة وغير

المؤسسة (ذلك أن لكل حرفة صناعتها فكذلك للفتوى أهلها)، ومجافتنا لذلك سيولد لدينا فوضى في الافتاء التي من شأنها أن تجعلنا أمام حالة صيغ و انحراف في مجال الفكر والممارسة خاصة لدى أولئك الشباب الذين قد تكون بعض الفتاوى سببا في انخراطهم في الأعمال الارهابية وفي الجماعات المسلحة الأمر الذي ستخلخل فيه المرجعية الدينية الموحدة بالمجتمع.

وإزاء هذا الوضع فما هو دور الزاوية؟

إننا نريد من الزاوية أن تكون كما كانت في الماضي مؤسسة للفتوى وإرشاد الناس وأن تخرج من قوقعتها وعزلتها الاجتماعية، وأن تحافظ على المرجعية الدينية للمجتمع الجزائري، وذلك بأن تقدم الفتاوى للناس وفي مختلف المجالات على أسس علمية صحيحة وأن تعمل على نشرها وتعميما حتى يطلع الناس عليها، فإذا تعزز هذا الدور فإن الناس سيعزفون عن استقاء الفتاوى من هنا وهناك طالما أنها في متناولهم.

رابعا: دور الزاوية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري:

تعتبر الهوية الثقافية عن الخصوصية الثقافية التي تميز ثقافة مجتمع ما عن غيرها وتجعل المجتمع متميزا عن غيره من المجتمعات وغالبا ما تظهر دلالات الخصوصية الثقافية في جوانب اللغة والدين والعادات والقيم، الزي وغيرها من مؤشرات الهوية المادية واللامادية، إلا أنه وبفعل العولمة التي عملت على تدويل الثقافة الغربية وجعلها نموذجا يحتذى به ويقاس عليه جعل الضريبة هي طمس ثقافات أخرى، ومسح الهويات

الثقافية للمجتمعات غير الغربية، و هذا ما يسمى بالغزو الثقافي الذي يعبر عن هيمنة ثقافة معينة واختراقها لثقافة أخرى وذلك عن طريق الانتشار الثقافي بفعل وسائط مختلفة كتكنولوجيا الاعلام.

حيث قد ساعدت تكنولوجيا الإعلام والاتصال على تجاوز الحدود المكانية والجغرافية للانتشار الثقافي، حيث أصبحت المعلومات والمؤثرات تنتشر بسرعة مذهلة وبدون أي حواجز تذكر، فبفعل الفضائيات والانترنت أصبح الأفراد وخاصة الشباب يتلقون المعلومات ومختلف المؤثرات السلوكية إيجابية كانت أو سلبية دون غرلة أو تمحيص أو مراقبة.

هاته المؤثرات التي من شأنها أن يكون لها تأثيرات مباشرة في تغيير أفكار الأفراد وقناعاتهم ثم تغيير قيمهم وعاداتهم وأنماطهم السلوكية، أي أنها تعمل على تغيير ثقافة المجتمع شيئا فشيئا، ويشير بعض الباحثين إلى أن العولمة الاقتصادية تأتي بعد العولمة الثقافية، أي أن العولمة الاقتصادية لا تمارس تأثيرها إلا بعد أن تكون العولمة الثقافية قد فعلت فعلتها، ومثال ذلك أن تغيير الأنماط الاستهلاكية للمجتمع يأتي أولا ثم يتبعه تسويق سلعة يتطلبها ذلك السلوك الاستهلاكي، مثل وجبات "ماكدونالد" و "كنتاكي" وشرب "كوكا كولا"، أو موضة معينة من اللباس الفاضح والغريب أحيانا، ورغم فضاحتها وغرابتها إلا أننا نجد الشباب ذكورا وإناثا يتمسكون بها بشكل ملفت للانتباه، فما سر هذا التمسك ؟

إنه غالبا الفراغ الثقافي المجوف وعدم الحصانة الذاتية اتجاه الآخر أي اتجاه الثقافة الوافدة، وفي ظل هذا الفراغ يقوى تأثير العولمة ويزداد

حجم الاختراق الثقافي، وتنطمس ثقافة المجتمع شيئا فشيئا إلى أن تحل الثقافة الوافدة محل الثقافة المحلية وتقضي عليها نهائيا.

فلطالما كان من أهم أهداف العولمة الثقافية العمل على تصوير النموذج الثقافي الغربي على أنه نموج مثالي يحتذى به في الحياة الأسرية والعلاقات الاجتماعية أو في الحياة الاقتصادية، وهذا النموذج يختلف جذريا عن التصور الإسلامي، سواء تعلق الأمر بالإباحية الجنسية أو بالعلاقة المتحررة بين الرجل والمرأة، أو بحرية المرأة، أو بتمجيد الفردانية، أو بتقديم الجوانب المادية على الجوانب الروحية، أو بتشجيع الكسب وتحقيق الأهداف بغض النظر عن الطرق والوسائل (الغاية تبرر الوسيلة)، هذا إلى جانب تشجيع المعاملات الربوية وغير ذلك من النماذج الأخرى الكثيرة.

وأمام هذا الوضع فما هو دور الزاوية؟ و هل ستبقى معزولة كما هي الآن وكأن الأمر لا يعنيه؟

اذن إن ما يفترض أن يكون دور للزاوية هو تحصين أفراد المجتمع وخاصة الشباب منهم ضد هذه المؤثرات خاصة السلبية منها والهدامة، وذلك بتسليحه بالعقيدة السليمة والأخلاق الفاضلة التي تحول بينه وبين تلك المؤثرات، وتنبهه إلى أخطارها ومفاسدها كما نجد أن لها دور إصلاحي وليس انطوائي أو انعزالي، ذلك أن المجتمع لا يأتي إلى الزاوية بل لا بد على الزاوية أن تذهب إلى المجتمع وأن تصلح ما به من خلل وأن تصونه وتحميه ضد هذه المؤثرات، وذلك بنشر تعاليم الدين

الحنيف بين أفراد المجتمع وتذكيرهم بها فان الذكرى تنفعهم وتصلح أمرهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾7.

الخاتمة:

لقد حث المولى تبارك وتعالى على ضرورة التمسك بالدين الإسلامي الحنيف وعدم التفرق والابتعاد عنه، فقال عز من قائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾8 فوحدة المسلمين في تمسكهم بدين واحد وليس أديان مختلفة، فالوحدة تأتي من تقاسم نفس الفكر ونفس التصورات حيث قد نهى المولى تبارك وتعالى عن التنازع والصراع لأنه يؤدي إلى التفرق والتشردم والافتتال وإلى الضعف والهوان فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾9.

فالإسلام يدعوا إلى الوحدة لأن فيها قوة الأمة، وينبذ الفرقة لأنها تؤدي إلى ضعف الأمة وانكسار شوكتها، ومن جهة أخرى نجد أن الإسلام قد حرم الاقتتال بين المسلمين فجعل كل من القاتل والمقتول في النار، كما حرم الإسلام استباحة دم المسلم أو ماله أو عرضه والحديث الشريف واضح في هذا الشأن، حيث قال الرسول (ﷺ): «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ»10 فما بالناس اليوم نجد من المسلمين من يبيع دماء إخوانه المسلمين ويستبيح أموالهم وأعراضهم ؟

من ذلك نجد أن العرض السابق طرحه يحيلنا إلى أن هناك تهديدات حقيقية تعصف بالمجتمع الجزائري و تجعل مستقبل وحدته في خطر محتم، الأمر الذي يقتضي التنظن لها وأخذها مأخذ الجد قبل فوات

الأوان، ثم إن مثل هذه التهديدات تقتضي تفعيل دور المؤسسات التربوية المختلفة ومنها مؤسسة الزاوية، هذه المؤسسة التي عليها أن تراجع أدوارها الماضية، التي باتت تقليدية ومتجاوزة، مما جعلها معزولة عن واقع المجتمع ومشاكله وما يعيشه من تغيرات متسارعة في مختلف المجالات وبعيدة أو غير مدركة لما يهدد المجتمع من أخطار محدقة به قد تعصف بكل شيء فيه حتى بذلك الموروث الديني الذي ما فتئت الزاوية تصونه وتنقله لطلبة العلم، بل إن هذه الأخطار قد تعصف أيضا بالزاوية ذاتها، وهذا إذا تم القضاء على المنظومة الثقافية التي تستند إليها في البقاء والاستمرار.

اذن هي دعوة لأن تعيد الزاوية مكانتها ودورها كمؤسسة تربوية دينية، وتمحو ما لحق بها من أوصاف الدروشة وغيرها، لتكون منارة لحفظ القرآن الكريم وتعلم العلوم الشرعية وكمصدر ومرجع للفتوى، ولكي يتعزز دور الزاوية بشكل فاعل في الحفاظ على وحدة المجتمع الجزائري وعلى هويته كمجتمع عربي مسلم نوصي بما يلي:

ضرورة اندماج الزاوية في المجتمع الجزائري ومعرفة ما يعيشه من تحولات ومشاكل وما يتهدده من أخطار في المدى القريب والبعيد، وإنهاء سياسة العزلة والانطواء.

ضرورة النفتح على المعارف الجديدة والتكنولوجيات الحديثة والاستفادة منها في أداء رسالتها.

بناء المناهج التربوية بالزاوية على العموميات الثقافية المشتركة بين أبناء الشعب والتي توحد المجتمع، ونبذ عوامل الفرقة والتمييز، هذا الى جانب اعتماد قيم الحوار وتقبل الآخر وتقبل المخالفة في الرأي ونبذ التعصب والعنف.

ضرورة انفتاح الزاوية على المذاهب والأفكار الدينية الوافدة، وتوضيح نقاط الخلل فيها بأدلة وبراهين دامغة، وتوضيح النظرة الشرعية السليمة حتى يجتنبها الناس عن يقين واقتناع وليس عن مجرد تقليد.

العمل على غرس قيم الفضيلة والعفة وتحصين الشباب دينيا أمام الغزو الثقافي الدايم.

تشكيل مرجعية دينية في الفتوى وجعل الفتوى متماشية مع المسائل المستجدة في حياة الناس والعمل على نشرها على نطاق واسع بمختلف الوسائل الحديثة، وهذا حتى لا يلجأ الناس على استقاء الفتوى من الفضائيات ومن مصادر غير موثوقة أو لا تتسجم مع مرجعيتنا الدينية.

الهوامش:

* لقد تم الاعتماد في بناء هذا المقال على النقاش الفكري الشخصي الذي قام بها الباحثين اتجاه الظروف والمواقف المحيطة بالواقع المرتبط بالموضوع قيد الدراسة، لذا كان الاستناد على الهوامش في بعض التفاصيل النظرية المتفرقة والقليلة، لكون المراد من هذا البحث ليس البحث المستندي أو المكتبي و إنما نقل التحليل النقاشي ووجهات النظر بأسلوب علمي مبوب بعناصر (هي المحتواة في المقال).

1. صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، دار البرق

،لبنان، 2002، ص 301.

2. أحمد مريوش ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث ، الجزائر 2007 ص 149.
3. عبد العزيز الشهبي ، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر ، دار الغرب ، وهران ، 2007، ص ص 13، 14.
4. نفس المرجع ، ص ص 26، 27.
5. عبد الله الرشدان ، علم اجتماع التربية، دار الشروق ، الأردن ، 2004، ص 227.
6. سورة النحل، الآية 125.
7. سورة الذاريات، الآية 55.
8. آل عمران، ص 103.
9. سورة الأنفال، الآية 46.
- 10- مسلم بن الحجاج النيسابوري، الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، باب تحرير ظلم المسلم، رقم: (2564)، ج 04، ص 1986 .

